نقدم في هذا البحث وجهة نظر مفادها أنالرحلة قد ساعدت على اكتشاف موطن الإنسان، كما أدت بهذا الإنسان أن يدرك وأن البشر قد سلكوا مناحي مختلفة، وتعددت ألسنتهم إلى جانب تنوع طرائق حياتهم.لقد كان بين الرحالة رجال علم ودين،بينهم أيضا طوافون من هواة السفر والترحال،كشف النقاب عن المجهول من الأرض والناس.رأينا أن يتضمن الفصل الأول إشارة لبعض الرحالةوذلك على سبيل المثال لا الحصر.وقد يرى البعض أن من بين من ذكرت أسماؤهم من الرحالة الأوروبيين مالا تستحق رحلاتهم الذكر،بل يجب أن تطمس أعمالهم و يبطل التنويه بها فيالأدبيات العربية الإسلامية «لأن كشوفهم الجغرافيةلم تكن سوى فتوح استعمارية، وأن أعمالهم كانت بعيدة كل البعد عن روح الكشف والعلم ،بل كانت نواة الاستعمار الاقتصادي والسياسينحن نسعى في ذكر هذه الأسماء إلى إبراز صلة بغض النظر عن الدوافع والنتائج،لأن اهتمامنا هنا ليس تقييم الرحلات قدر التأريخولعلنا نخطئ كثيرا إذا اقتصرنا في الأدبيات العربية،والمناهج التدريسية على ما يراه البعض صالحا من الأعمال،وربما تجدر الإشارة هنا إلى أن عددا كبيرا من الرحالة الأوروبيين قد أسهموا إسهاما إيجابيا بتقديم معلومات مفيدة ومعرفة بالشعوب غير الأوروبية لم تكن متوفرة من قبل. وقد قرأنا في تقديم الشيخ حمد الجاسر لترجمة كتاب «اكتشاف جزيرة العرب»، للكاتبة الفرنسية جاكلين بيرين، برازه للنتائج الإيجابية لعدد من الرحلات الأوروبية في الجزيرة العربية.يقول في هذا الصدد: «وقد لا يحتاج القارىءإلى السير معها-في ثنايا والوصول إلى حل رموزالأبجدية الحميرية (خط المسند) حلا أضاف معلومات جديدة عن حلقة كانت مجهولة لدى العرب أنفسهم، من تاريخ ذلك الجزء من بلادهم، فبرزت بفضل معرفة قراءة «المسند» في آثاره، من محافذ وسدود و دول تعاقبت الحكم فيه، كالدولة «المعنية» و«السبئية» و «القتبانية»،وأيا كانت دوافع الرحالة المعلنة منها والخفية،الرحالة-ولو بدرجات متفاوتة-بدقة الملاحظة والوصف والتقصي في تسجيل مشاهداتهم بأمانة وصدق، كما حرص معظمهم على التفرقة بين المشاهدةوالرواية عند تسجيل معلوماتهم.قواعد أساسية من منهجية البحث الحقلي في الدراسات الإثنوجرافية الأمر الذي يجعلنا نعالج هذا الموضوع في الفصل الثاني بالنظر في أعمال بعض الرحالة-القدامى منهم والمحدثين-باعتبارهمإثنوجرافيين وإن كانوا غير متخصصين أو مدربين أساسا هذا النوع من إن بعض الرحالة الذين نتناول أعمالهم فيهذا الكتاب مثل المقدسي والبيروني لم يكن هدفهم الرئيس الرحلة في حدذاتها قدر اهتمامهم بوضع مؤلف في تقويم البلدان، أو وصف حضارة غير إسلامية كما جاء في دراسة البيروني للثقافة الهندية. دليلا بارزا على قيمة رحلاتهم في تزويدهم مباشرة بالمعلومات المستمدة من الملاحظةالمباشرة والمعاينة الشخصية عن الأحوال السياسة والاجتماعية والثقافيةللبلدان التي زاروها أو أقاموا فيها، وهذا يشكل جوهر العمل الإثنوجرافي.هذا ولا يقتصر الأمر على كون هؤلاء الرحالة إثنوجرافيين،أو نجد بعضهم على الأقل-قد برزوا أيضا كأدباء، وأن مادة رحلاتهم قد هذا وقد درج الكتاب العرب على استخدام عبارة «أدب الرحلات» للإشارة إلى كتابات الرحالة المسلمين وغيرهم التي يصفون والتي يذكرون فيها أيضا أحداث تجوالهم،وما قد يصاحب ذلك من بلورة لانطباعات شخصية، ونظرا لارتقاء الوصف في كثير منأعمال الرحالة وبلوغه حدا كبيرا من الدقة، علاوة على عملية الأسلوبأدخلت أدبيات الرحلات ضمن فنون الأدب العربي، وأصبحت قراءة أدب الرحلات متعة ذهنية كبرى. ومع أن مادة الرحلات-كما يرى الكاتب حسني حسين-قد لا ترتقي إلى مستوى الفن القائم بذاته كفن القصة،أو المقالة الأدبية مثلا، إلا أنه في أدب الرحلات تجتمع أساليب هذه الفنون وموضوعاتها كلها دون أن تضبطه معاييرها،ومع أننا نركز في هذا الكتاب على التحليل الإثنوجرافي لكتابات الرحالة، فإننا نرى أن نشير في هذا التمهيد إلى أن مادة الرحلة كثيرا ما تحتوي على العناصر الأدبية جنبا إلى جنب مع المعلومات الإثنوجرافية. ولنكتف هنا بالإشارة إلى دراسة عثمان موافي الذي تناول فيها ورأى أن هذا الرحالة قد نقل لنا صورا حية وصادقة عنالمدن والمجتمعات الإسلامية في المشرق العربي، وفي فترة من أدق وأحرج الفترات، التي مر بها المشرق العربي وهي فترة الجهاد المقدس ضد الصليبيين بقيادة القائد صلاح كان وصف ابن جبير وتصويره الاجتماعي يصدران عن عاطفة قوية جياشة نحو ما يصف، وما يصور سواء أكانت هذه العاطفة في وصفه لبعض المدن التي استردها المسلمون من الصليبيين . ولا شك أن عاطفته نحو المدن، التي كانت بأيدي المسلمين، تختلف عن عاطفته نحو المدن التي بقيت في حوزة الأولى عاطفة حب وإعجاب، أما الثانية فعاطفة بغض وكراهية تبرز القيمة المنهجية ،فنجد-كما يشير بذلك حسيننصار في دراسته للرحلة نفسها-أن ابن جبير كان يعنى في وصف المدن وتضم المرافق في خلدة: الأسوار، والمواقع الإسلامية، والمعابد والكنائس والآثار غير وتضم الأرياض الأحياء والضواحي.جبير كل مدينة وفق هذه العناصر إلا أنه تعرض لبعضها تارة وأهمل البعض ومن وجهة النظر الإثنوجرافية فإنها في مجملها تشكل إطارا دقيقا لوصف المدن والبلدان هذا،والمنهج، وإنما

Summarized by © lakhasly.com

برز أيضا العنصر الأدبي متمثلا في جمال اللفظ وحسن«جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق المشرق،التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها،وتجلت في حلل سندسية من البساتين ،المكين ،وتزينت في منصتها أجمل تزيين ،وماء سلسبيل،النفوس نسيمها العليل،معرس للحسن ومقيل، حتى اشتاقت إلىوشراب ;الكمامة للزهر، فكلموضع لحظته بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد النظر، ولله صدق القائلين عنها: إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث أسامتها و تحاذيها» وهي أيضا مخالطة للناسوالأقوام،ولرصد بعض جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين خلال فترة لذا كان للرحلات قيمة تعليمية من حيث إنها أكثر المدارسو إثراء لفكره وتأملاته عن نفسه وعن الآخرين.قديمة قدم الإنسان ذاته إذ عرفها منذ العصور الغابرة حتى وقتنا هذا ، ومعذلك فإن كتابات الرحالة،تصور إلى حد كبير بعض ملامح حضارة العصر الذي عاشوا فيه ،وأحوال الشعوبالتي اختلطوا بها ، سواء كانت الرحلة فعليه أو من نسج قصص الخيال مثللقد قرأنا عبارة للفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون كان قد ذكرها وفيها يقول: «إن السفر تعليم للصغير، وخبرة» أن السفر مرآة الأعاجيب،ونجده يستطرد القول في تعليقه على كتاب رفاعة رافع التجارب» والفاضل الذكي اللبيب ما شاهده من عجائب ما يحرص العاقل على الأسفار ،والنقل

Summarized by © lakhasly.com